المحور الأول: مصادر دراسة تاريخ وحضارة المغرب القديم

يعتمد المؤرخ في دراسته لأي حضارة على العديد من المصادر التي يأتي في مقدمتها المصادر الأثرية "المادية" ثم المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والرومانية بالإضافة لما ورد بالكتب المقدسة، وسنحاول في هذه المحاضرة ان نتناول المصادر المادية والكتابية التي تعنى بدراسة تاريخ وحضارة المغرب القديم.

I. المصادر المادية:

لقد أدت أعمال الحفائر التي أجريت في الكثير من مناطق المغرب القديم إلى الكشف عن مجموعات كبيرة من الأثار المتنوعة، ما بين آثار ثابتة كالمعابد والمنازل والقلاع والأقواس ... وآثار متنقلة كالتماثيل والأسلحة وأدوات الزينة والأواني المنزلية...فالآثار المادية تشمل جميع المخلفات المادية التي تعود إلى الماضي سواء كان قريبا معاصرا أو بعيدا يعود إلى عصور ما قبل التاريخ ، بحيث تغطي أنواع الفنون مثل :العمارة والزخرفة والرسومات والنقوش بما فيها الأثار المشاهدة كالمباني التذكارية، أو التي ظلت مغمورة تحت التراب والتي لا يمكن التعرف عليها إلا عن طريق التنقيبات الأثرية، أو التي يتم الكشف عنها أحيانا عن طريق الصدفة.

إن المصادر المادية تمثل بحق شواهد حقيقية وأصيلة للنشاط الإنساني وتفاعله، حيث تعتبر أصدق المصادر وأكثرها اقترابا من الحقيقة لأنها تعكس الواقع بعيدا عن ميول الباحث وتوجهاته الفكرية والإيديولوجية، وكمثال على ذلك الأثار الرومانية بالجزائر التي تظهر بصدق المستوى الحضاري لتلك الفترة من حيث شكل البناء وطراز العمارة، ونوعية الحياة الاقتصادية والاجتماعية كما هو دون تحوير أو تغيير، ماعدا ما يمكن أنه طرأ عليها نتيجة تأثير عوامل المناخ والزمن، والتي يجب أن يأخذها الباحث بعين الاعتبار.

والمصادر المادية هي مصادر صامتة يقتضي استنطاقها حذراً شديداً وموضوعية فائقة وقد تعدّدت وتنوعت من عصر لآخر،

وتعتبر الفترة البونية الأقدم وتتميّز بقلة المصادر الاثرية، ومع ذلك أفرزت بعض المخلفات الاثرية مثل مدينة كراكون التي كشفت عن مدينة بونية كاملة المعالم (طرق، أسوار، معابد، منازل...)[1]، ومن نفس الفترة نجد معبد التوفات (Tophet) الذي يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد في صلامبو في تونس بالإضافة إلى الانصاب التي توفر معلومات مهمة[2]، بالإضافة إلى مجموعة من اللقى الاثرية التي تعود لنفس الفترة مثل

الفخاريات ذات الطلاء الأحمر والأسود والمزركشة والحلي التي وجدت في القبور، مثل الحلي التي وجدت في جزيرة رشقون والأندلسيات (Les Andalouses) بالقرب من وهران كالقرط الذي صنع على هيئة تانيت[3].كما يعتبر سك العملة من المظاهر الهامة التي عرفتها الحياة الاقتصادية في المغرب القديم، حيث يلاحظ المتتبع للآثار الفينيقية البونية بالجزائر، بأن وجود القطع النقدية ضمن الأثاث الجنائزي لايتجاوز تاريخه القرن الثالث قبل الميلاد وهي في غالب الأحيان عائدة إلى فترة الملوك النوميديين[4].

ومن الاضرحة نجد المدغاسن كأقدم نموذج للعمارة النوميدية[5] يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وضريح الصومعة بالخروب يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد[6]، وضريح صبراتة في القرن الثاني قبل الميلاد في إقليم طرابلس[7]، وقبر الرومية (الضريح الملكي الموريطاني) يعود إلى القرن الأول ميلادي[8]، ولجدار في تيارت وهي مكونة من 13 بناء محاط بقبور صغيرة والذي يعود إلى القرن الخامس ميلادي[9]، ومن المعابد نجد معبد شمتو الذي بناه الملك مكوسن في المدينة الملكية بولا ريجيا يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد[10].

ومن الفترة الرومانية نجد العديد من المدن الاثرية محاطة بأسوار وأقواس نصر، وبها مرافق يومية ومرافق دينية ومنازل وساحات عامة (فوروم) ونافورات ومن هذه المدن: كويكول (جميلة)، تيبازة، روسيكادا (سكيكدة)، وثاموقادي (تيمقاد)[11]، ومن هذه المدن نستشف الكثير من التفاصيل عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لسكان المغرب في الفترة الرومانية. وفيما يخص النقائش اللاتينية المتواجدة بكثرة في شمال افريقيا بالنظر لطول فترة التواجد الروماني نسبيا بالمنطقة، فهي تنقسم عموما إلى قسمين: كتابة بأحرف بارزة وهي السائدة، ثم الكتابة المعروفة باسم "Acta" وهي التي تستعمل عادة لتدوين الوثائق الرسمية[12].

II. المصادر الأدبية:

وهي مصادر أساسية للمادة الخام وسجل تفصيلي للحوادث، وتعرف عادة" بالأصول " وتعتبر أرقى أنواع المصادر المسجلة مع أنها لا يمكن أن تتجرد من الانطباع والتأثر الذي يلاحظ على الكاتب من خلال تأثره بالأحداث وما تتركه في نفسيته، مما يجعل الحقيقة يكتنفها بعض الشك الذي يحد من مدى موضوعيتها

وصدقها ونزاهتها، ولهذا يجب أن تؤخذ نفسية كاتبها ومسجلها بعين الاعتبار من طرف الباحث عند التعامل مع المادة التاريخية .

تشكل هذه المصادر عنصرا أساسيا، وأحيانا كثيرة وحيدا، لمعرفة أخبار افريقيا الشمالية في العهود القديمة. ومن نافلة القول أن البحث التاريخي الجاد لا يكتمل إلا بتضافر المصادر الأركيولوجية والمصادر الأدبية. وفي هذا الصدد نتوفر على بعض الترجمات لأدباء اغريق وروما ن الذين اهتموا بالمنطقة، خاصة أثناء فترة ارتباطها بالصراع الفينيقي الروماني بالمنطقة خلال القرنين 3و2 ق .م، أو التواجد الروماني بالمنطقة.

وأقرب الترجمات إلينا، هي تلك السلسلات التي تصدرها دور النشر الفرنسية : Garnierو Belles-Letters وهي دور نشر أخذت على عاتقها مهمة نشر أعمال المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين مثل سطرابون، هيرودوت، بلين القديم، بطليموس ، بومبونيوس ميلا، وهي أعمال تختلف من حيث الإخراج وجودة التحقيق، فضلا على أن أعمال هؤلاء المؤلفين لم تصل دائما إلينا مكتملة.

ولا بد في هذه العجالة، من الإشارة إلى أسماء ساهمت بدورها في التعريف بالمنطقة ونذكر منها: "حانون" صاحب الرحلة الشهيرة خلال القرن السابع قبل الميلاد، والذي تجاوز "أعمدة هرقل"، ثم سيلاكس Scylax الرحالة الإفريقي الذي قام برحلته في منتصف القرن الـ 17 ق.م[13].

وبجانب هؤلاء الرحالة والجغرافيين، تجب الإشارة إلى هؤلاء الذين جمعوا بين التاريخ والجغرافيا، ونذكر من بينهم، هيرودوت، بوليب، ديودور الصقلي، أبيان، سالوست، وبعض الأفارقة نذكر من بينهم القديس أغسطس وأبولي.

إلا أنه يؤخذ على المؤرخين والجغرافيين الغربيين العديد من المآخذ، ومنها روح التعصب التي عرفت عنهم وعن وحضارتهم وإظهارها وكأنها أرقى من غيرها، وعلى ذلك فقد اهتموا بإبراز نواحي الغرابة في حضارة المغرب القديم، وكذلك اهتمامهم بالأساطير والروايات المنقولة دون التأكد من صحتها، يضاف إلى ذلك جهلهم بلغات ولهجات البلاد، وهذا ما أثر على كتاباتهم. وسنستعرض في هذه المحاضرة لأهم هؤلاء الجغرافيين والمؤرخين، مع تبيان أهم مؤلفاتهم.

1. المؤرخون الإغريق:

أ.هيرودوت (Hérodote) (484-420 ق.م):

ولد في هاليكارناسوس في جنوب غرب آسيا في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، ولا يمكن تحديد تاريخ مولده بالضبط. ومات في ثورى في جنوب إيطاليا عام 420 ق.م. ولقد ترك مقر مولده قبل عام 454 ق.م. وقد قام بزيارة العديد من المناطق والحضارات وكتب عنها ومن بينها المغرب القديم الذي هو جزء من ليبيا.

وقد جاء كتابه التاريخ في تسعة أجزاء، وما يهمنا منها جزآن: الثاني والرابع والذين يتحدث فيهما عن ليبيا وسكانها الليبيين. فقد ذكر ان ليبيا تقع الى الغرب من مصر وهي متصلة بها[14]،وتحدث عن لباس الليبيين[15]، وطريقة دفنهم[16] ومساكنهم وطريقة حلق شعورهم وطبيعة المنطقة وحيواناتهم الأليفة والمتوحشة وأخرى أسطورية[17]، كما تحدث عن القرطاجيين وطبيعة بلادهم وتجارتهم مع سكان المنطقة[18]، كما ذكر أن ليبيا تضم أربع أمم اثنتان منها أصليتان: الليبيون والحبشة واثنتان غير أصليتين هما الفينيقيون والاغريق[19] غير انه وبالرغم من المعلومات التي اوردها عن المنطقة إلا أن حديثه عن المنطقة وصف بالمبالغ في بعض الاحيان حيث كان يكتب كل ما يسمعه دون فحص او تحري للحقيقة في بعض الأحيان.

ب.استر ابون (Strabon):

هو جغرافي إغريقي، ولد في أماسيا في اقليم بونتوس على البحر السود، وكان شديد الثراء مما مكنه من التنقل إلى مناطق عديدة في العالم، عاش ما بين القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول ميلادي، وتتميز كتاباته بأنها نوع من الجغرافية التاريخية، ولقد قسم مؤلفه إلى سبعة عشرا جزءا وزع عليها أقاليم العالم[20]، حيث أورد معلومات في كتابه الجغرافيا في الكتاب السابع عشر في الفصل الثالث حول المنطقة، وقدَّم وصفا شاملا لكل سواحل شمال افريقيا من دلتا النيل شرقاً الى نهر ليكسوس بالمغرب الاقصى، وتحدث عن سكانها في اغلبهم واراضيهم كما تطرق إلى حيواناتهم[21]، تحدث عن المور كقبيلة ليبية غنية تعيش فيما يقابل إيبيريا، وإلى الجنوب منهم يسكن الجيتول[22]، ووصف ملابسهم وتصفيفة شعورهم وزينتهم ويذكر أن المور جاؤوا مع

جنود هرقل[23]، كما تحدث عن قورينائية[24] وقرطاجة منذ تأسيسها إلى سقوطها وركز على الحرب البونيقية الثالثة[25].

ت. بوليبيوس (Polybius):

المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش خلال القرن 3 ق.م.. ويتألف كتابه المعروف "التاريخ العام " من 40 جزءا لم يصلنا منها إلا خمسة أجزاء، ويتحدث عن الفترة الممتدة من 272إلى 146 ق.م.، أي أنه يغطي الحروب التي دارت بين روما وقرطاجة والتي عرفت بالحروب البونيقية[26].

ينتمي إلى وسط ارستقراطي من اركاديا بالبليوبونيز عاش ، تولى منصب الخيالة ارتبط بعائلة سكيبيو الافريقي ذات النفوذ السياسي والعسكري حيث اتخذه مستشارا له، تطرق لقرطاج في إطار تناوله المراحل الاولى من تاريخ الجمهورية الرومانية، وتناول ضمنها المعاهدات والحرب الاولى واهتم بالحرب الثالثة وسقوط قرطاج، فقد كان قائد القوات الرومانية في جيش سكيبيو، يعتبر مصدرا اساسيا في دراسة الحرب الاولى وانعكاساتها، كما نعتمده في دراسة الحرب الثالثة ومؤسسات قرطاج ونظامها السياسي، وعلى الرغم من انحيازه لروما تحدث عن مستوطنات الفينيقيين وعلاقتهم بالمغاربة، وتحدث عن حدود قرطاجة، وتشير بعض الكتابات التاريخية ان بوليبيوس كان قد قام برحلة عبر سواحل المحيط الأطلسي، وكتب كتابا ضمنه مشاهداته إلا أن كتابه قد ضاع وأخذ عنه بلين الكبير[27].

ث. ديودور الصقلي (Diodore de Cicile):

مؤلف من القرن 1ق .م. نشأ في صقيلية بين القرنين الثاني والأول قبل الميلاد عاصر يوليوس قيصر واغسطس، كتب تاريخ العالم منذ اقدم العصور حتى حرب قيصر على بلاد الغال 54 ق.م عنونه بـ"المكتبة التاريخية"، تحدث عن اغاتوكليس ونقله للحرب الى شمال افريقيا، واستيلاءه على املاك قرطاجة، وتحدث عن النوميديين وذكر بانهم يسكنون بمحاذاة قرطاجة، وقسّم سكان المغرب الى أربع فئات: القرطاجيين، الليبيين الفنيقيين الذين يسكنون السواحل لهم حقوق المواطنة القرطاجية، النوميديين وتشمل هذه التسمية كامل سكان المناطق الداخلية الذين يعادون القرطاجيين، والسكان الرحل الذي يتوزعون في المناطق

الداخلية حتى مشارف الصحراء[28]، اعتمد ديودور النقل عن مؤرخين سابقين والمفاضلة دون تبرير منطلقاتها.

ج. بلينوس الأكبر (Pline L'Ancien):

احد علماء الطبيعة عاش في القرن الأول ميلادي، كان بلينوس مقربا من الامبراطور سيبسيان ، وقد عين قائدا لبعض وحدات الاسطول. وتميز لكونه عالما موسوعيا ، تناول في مؤلفاته العلوم العسكرية والتاريخ والتعليم واللغة، ولم يبق من مؤلفاته 102 مؤلفا سوى موسوعة التاريخ الطبيعي[29] ، حيث كتب التاريخ الطبيعي في 37 مجلد[30]، اعتمد على كتاب ماغون الذي اختفى، بدأت رحلته من المحيط الاطلسي غربا حتى البحر الاحمر شرقا ولم تتجاوز معلوماته الساحل والمناطق التلية داخل المغرب، ذكر ان بلاد المغرب كانت مقسمة الى موريطانيا و نوميديا وافريقيا البحتة والى الشرق منها تقع السرت وقورينة[31].

ح. ابيان (Appien):

هو أبيان السكندري المولود بالإسكندرية سنة 95 م، وهو صاحب موسوعة "رومايكا" "Romaica" التي أورد فيها عددا لا بأس به من المعلومات عن يوبا الثاني، ويعد مرجعا هاما عن الفترة المضطربة القلقة التي عاصرت يوبا الثاني، تلك الفترة التي شهدت صراع قيصر وبومبي.

كتب بالإغريقية التاريخ الروماني تاريخ التوسعات الرومانية في 24 كتابا منذ بدايتها الى سنة 69م، صنف كتبه حسب المناطق الجغرافية والشعوب التي شملها توسع روما، بقي منها تسعة كتب كاملة، وعرف بانحيازه في كتاباته لروما، تحدث في الكتابين المخصصين لليبيا وايبيريا عن الحرب الثانية في ايبيريا، ومعطيات تهم نوميديا وقرطاج، وقد تضمنت كتاباته العديد من الوثائق والمصادر التي كادت تضيع لولا مجيء كتاباته (مثل ما فقد من تاريخ بوليبيوس وتيتيوس ليفيوس)[32].

2.المؤرخين الرومان:

أ. كورنيليوس نيبوس (Cornilius nipos):

مؤرخ روماني عاصر شيشرون وهو من منطقة فيرونا ومن أوائل المهتمين بأدب التراجم، ومن بين المؤرخين اللاتين الذين عاشوا في القرن الأول قبل الميلاد. وقد ألف كتابا بعنوان "سير مشاهير الرجال" في ثلاثة أجزاء

بقي منها الثالث كاملا خصصه لسير القادة المتميزين في الامم الأجنبية، وتحديدا اشهر القادة الاغريق وملوك الفرس ومقدونيا وخلفاء الاسكندر وهاميلكار وابنه حنبعل[33].

ب. تيتوس ليفيوس (Titius Livius):

يعتبر من أشهر المؤرخين الرومان عاش في الفترة ما بين (59 ق.م- 17 م) مما يعني أنه عاش في نهاية القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الأول ميلادي.

وقد تفرّغ في سنة 25 ق.م لكتابة تاريخ روما وعنون كتابه بـ (Histoire Romaine)."التاريخ الروماني"[34] وهو مكوّن من 142 جزء بقي منها 35 ، ومقتطفات من بقية الكتب، وتناول في سياق ذلك الحروب البونية الثانية، وقد أرخ لها في الكتاب من 21 إلى 30 واستعرض احداث الحرب الأولى والتوسع القرطاجي في ايبيريا في ثنايا الكتب من 16 إلى 20، بينما تناول الحرب البونية الثالثة ابتداء من الجزء 49 وبقيت ملخصاتها، وأتى على ذكر العديد من المدن المغربية التي كانت موجودة آنذاك، وكذا اسماء بعض الملوك المغاربة الذين شاركوا فيها، غير انه على الرغم مما منحتنا كتبه من معلومات الا انه عرف بالأسلوب الادبي[35]، ومن المآخذ التي وجهت له انه عرف باعتزازه بتدوين منجزات "شعب سيد العالم"[36].

ج.بومبينيوس ميلا (Pomponius Mela):

وهو مؤلف اسباني الأصل من القرن 1الميلادي. صاحب كتاب "De chorographia " وهو عبارة وصف للعام المأهول أنذاك. قام برحلة من اعمدة هرقل غربا حتى مصر شرقا وصف فيها سواحل إفريقيا اكثر دقة مما فعل الجغرافي استرابون، تطرق الى اصل السكان وقد ربط في كتابته علاقات وطيدة بين اسبانيا وبلاد المغرب[37].

د.سالوستيوس (Sallustuis):

المؤرخ والسياسي الروماني الشهير (86ق.م-36ق.م) وهو صديق يوليوس قيصر، حيث استعان به في حملاته العسكرية على شمال افريقيا، بل وعين الياموزدا بجميع السلط على ولايات افريقيا الجديدة " Africa

Nova" (وهي الجزء النوميدي الواقع غرب تونس والذي كان خاضعا للملك الامازيغي يوبا 1 والذي انتزع منه بعد المعركة "تابسوس" سنة46ق.م.)،

من المؤرخين الرومان الذين تناولوا في كتاباتهم المغرب القديم، شغل عدة مناصب في روما فكان نقيبا للعامة في مجلس الشيوخ وقد طرد من منصبه لأسباب اخلاقية في 50 ق.م، له كتاب مؤامرة كاتلينا (64- 62 ق.م)، وحرب يوغرطة (116-105 ق.م) وكتاب التواريخ الذي ضاع[38]، تحدث عن سكان شمال افريقيا ووصفهم بأنهم بدائيون وبرابرة يأكلون لحوم الحيوانات المتوحشة أو أعشاب البرية كالحيوانات لا يعرفون رادع أخلاقي ولا يخضعون لقانون ولا لسلطة سيِّد، لا يملكون مساكن ثابتة يتجولون من منطقة لأخرى ولا يوقفهم إلا الليل، كما أتى على ذكر النوميديين والجيتول والمور والليبيين وكيف امتزجوا مع جيش هرقل المكون من الفرس والأرمن والميديين[39]، غير أن المؤرخين وجَّهوا انتقادات عديدة وشككوا في صحة روايته على الرغم من ادعاءه انه نقلها عن وثائق بونية تعود للملك النوميدي هيمبصال، كما عرف عنه نقص الدقة في تسمية الأماكن الجغرافية.

هـ.بطليموس (Ptolemie):

وهو جغرافي شهير من الذين كتبوا عن القرن الثاني ميلادي، يهتم كتابه الرابع بإحداثيات المغرب القديم، حيث تعد خريطته من شمال افريقيا من أهم الأعمال النادرة في التاريخ القديم[40].

3.العرب من الفترة الوسيطية:

تناول العديد من مؤرخي الفترة الوسيطية العودة للأصول والكتابة عن بلاد المغرب في الفترة القديمة ولكن ذلك لم يكن حول تاريخ الممالك الوطنية وإنما تعرضوا لذلك من جانب أصول البربر[41]، في مقدمتهم عبد الرحمان بن خلدون في كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر" في سبعة أجزاء[42]، حسن الوزان الملقب "بليون الافريقي" في كتابه "وصف افريقيا"[43]، ومارمول كربخال في كتابه "أفريقيا"[44]، وابن عذاري المراكشي في كتابه "البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الاندلس والمغرب"[45]، والبكري في كتابه "المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب"[46] والادريسي في كتابه "نزهة المشتاق لاختراق الآفاق"[47] وكتاب "الاستبصار في عجائب الانصار" لمؤلف مغربي مجهول[48].